

بسم الله الرحمن الرحيم  
والصلاة والسلام على رسوله الكريم

الموسيقى والغناء العربي وقضية الحرية

\*\*\*\*

يعسر على المتصفح للتراث العربي المتصل بالموسيقى والغناء ان يجد قطعاً موسيقية او غنائية تتناول قضية الحرية فردية كانت أو جماعية في أي عصر من العصور قبل التقسيم الذي أدخله الاستعمار على وطننا العربي والاسلامي ليصنع منه مجموعة أقطار صغيرة سهلة الاستثمار تسخر لخدمة مصالحه الخاصة ومصاغة بطريقة تجعلها قابلة عن طواعية وحتى يسعى منها لتذوب في الثقافات الغربية عنها من حيث التقاليد واللغة والدين .  
والمعروف أن موسيقانا البحتة أي الخالية من الكلمات والمعبر عنها في الكتب القديمة بالموسيقى المحضة ويسميتها بعضهم عبر وسائل الاعلام (غلطا) صامته لم تكن سواء اعادة لألحان الغناء وتعرف في المشرق "بالمحاسبة" وفي المغرب العربي (بردان الجواب) أو عزف مرتجل (تقسيم أو استخبار او مقدمات موسيقية تعزف في مستهل الحفلات مثل البشرف في المشرق العربي وفي تركيا ، و"الاستفتاح والمصدر " بتونس و"المثالية والتوشية" في الجزائر والمغرب ، أووسط الحفل مثل "السماعي" و"التحميلة" و " اللقة " والسيرتو" وجميع هذه القطع لا صلة لها بأي موضوع بما في ذلك قضية الحرية .

وظهرت فرق للموسقى النحاسية عسكرية وأهلية حلّت محل فرق النوبة العسكرية التي بعثت في العصر العباسي الثالث وهي خاصة بمراسم الخلافة ثم تفتح الخليفة القادر وسمت بها لوزرائه وللسلطين آل عثمان "بالمهتر" وقد سمحوا بها للباشاوات التابعين لهم وقد أدرکنا منها فرقة بتونس كما سجلت في طرابلس سنة 1960 نماذج من موسيقى فرقة الباشا عن الشيخين على الحداد بالزرنة (الغيطة) ومحمد شقلب بالطبل (النوبة) وانتجت هذه الفرق وكذلك الموسيقى النحاسية عدة مسيرات موسيقية بمناسبة تحرير جانب من الاوطان او الانتصارات العسكرية وقد جمعت عن آخر عنصر من الفرقة التونسية للباش وهو المرحوم الصادق الفرجاني البشارف التونسية وتختم جميعها بقطعة تعرب عن القوة تسمى "الحربي" وهي التي كانت تعزم لبث الحماس في أفراد الجيش ... (نسمع حربي بشرف تونسي )

وفي عصرنا الحاضر تناول الموسيقىار محمد عبد الوهاب انتاج عدد هام من القطع الموسيقية الصغيرة وتبعه في ذلك عدد كبير من الفنانين كما انتج فريد الاطرش عدد من المعزوفات المعدة للرقص تخليدا لعلاقته مع الراقصة أنيسة جمال وأنتج عدد آخر من الموسيقيين قطعاً سنفونية

أمثال يوسف خاشوا بالأردن وجمال عبد الرحيم بمصر ولم يكن لجميع هذه القطع صلة بحرية سوى قطعة واحدة للاستاذ محمد عبد الوهاب أعطاها اسم " الجزائر انتجها ابان حرب التحرير الجزائرية ولم تتناول وسائل الاعلام آنذاك ارتباط هذه القطعة بالتحرير المذكور .

وقمت في الخمسينات بانتاج قطعة موسيقية خاصة بآلة البيانو أسميتها "رقصة الحرية وألفت عليها رقصة "بالي" لم تسمح السلط الاستعمارية بأدائها أمام الجمهور وحينئذ لم تقدم بمسرح مدينة تونس الا بعد الاستقلال يقال اسماع جانب من القطعة) في نفس الفترة انتجت قطعة سنفونية صورت فيها مراحل الكفاح التحريري للمغرب العربي واستمرار مسيرته التي لا تنتهي تعبيراً على طومحه المستمر نحو التقدم والغاية الفضل للشعب. وقد عزفت هذه القطعة في المهرجان السنفوني الدولي لمدينة موسكو في شهر ماي من سنة 1984 (سماع أنموذج من القطعة وفي السبعينات أنتجت قطعة سنفونية في شكل كشيرت للكمانجة مع الأركستر صورت بها الوحدة الفنية لبلدان البحر الابيض المتوسط معهد الحضارات ومهبط الأديان قدمت فيها عدة مقامات وايقاعات من مختلف البلاد العربية شاركت بها في المهرجان السنفوني الدولي بلنيني غراد سنة 1988 (أنموذج من القطعة ونأمل ان يواصل شببانا الموسيقيون هذه المسيرة خاصة وقد أصبحت لنا فرق سنفونية في عدة مدن عربية مثل القاهرة وبغداد وتونس والجزائر .

أما الجانب الغنائي فالمعروف عنه أنه تناول الخمریات والغزل وشئاً قليلاً من وصف الطبيعة في خصوص الموشحات الأندلسية مثل :

للنظر مغانيها تبدي	1/ غرناطة فتته للبشر
والزهر أحمر وديدي	فاقت بأنواع الشجر
في ريع الجوز	2/ خرجت يوماً نتدرج
نوار اللوز	نلقى البساط كلو
في ذاك الحوز	لذلي شربي

من نوبر رمل المايه.

وقد اتسم هذا الغناء بالخنوع والضعف والاستسلام فهذا الشيخ السيد الصفتي يسجل لنا في العشرينات :

تدلل لمن تهوى فليس الهوى سهل	ففي حبه يحلو التهنك والذل
وهذا عميد المسرح الغنائي الشيخ سلامه حجازي يسجل قبيل الحرب العالمية الاولى	سمحت بارسال الدموع محاجري
وهذا الشيخ يوسف النيلوي يسجل في نفس الفترة:	لما تزايد في التجني هاجري
الله يعلم ان النفس قد هلكت	باليأس منك ولكني أمينها

فالأمثلة عديدة لهذه المعاني التي لا تخلو من طرافة وجمال ورقة حاشية ولكن انفرادها في البرامج الفنية دون سواها يدمي في الشباب الركود والاستسلام والتذلل وعدم الشعور بالمسؤولية ويبعدهم كل البعد عن التفكير في الحرية وصورة التخطيط للكفاح التحريري وفي تاريخنا القديم غنت فتيات قریش خلف المشركين المحاربين في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة لبعث فيهم الحماس للدفاع عن وثبتتهم وعن حقهم السابق في استعباد الانسان للانسان فأنشدن :

نحن بنات طارق      نمشي على النمارق  
أن تقدموا نعانق      او تحجموا نفارق  
فراق غير واق

وبالمقابل أنشدت بنات النجار في استقبال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة بمناسبة الهجرة عند وصوله للمكان المعروف بثنية الوداع باعتباره محرر الانسانية ومرسخ مكان الأخلاق :

طلع البدر علينا      من ثنية الوداع  
وجب الشكر      علينا ما دعا لله داع  
أيها المبعوث فينا      جئت بالأمر المطاع

ومن أبرز ما جاء به هو التسوية بين البشر لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى وتربية المسلم على حب الخير للجميع لا يكون أحدكم مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " والأغنية الخيرة تداولتها الاجيال حتى الآن بتلاحين عديدة ويذكر لنا كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني عدة قطع تمت للحرية بوجه من الوجوه من ذلك ما أنشد سائب خاثر في القرن الأول للهجرة من كلمات سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه.

لنا الجففات الغريلمعن في الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وبعد سقوط الدولة العباسية ظهرت بوادر الانهيار في السياسية واختار المغنون البعد عن الأغاني ذات الطابع السياسي اذ لو تناولوها لاضطروا الى مدح الحكام الأجانب الذين أصبح العديد من البلدان العربية تحت سلطتهم والغناء تعبير صادق لا يمكن أن يصدر الا من أعماق القلب.

واستمر الأمر الى مطلع هذا القرن حيث وجدنا قطعا مسجلة على اسطوانات تناولت قطعا وطنية نذكر منها :

ما سجلته شركة ببيضافون للمطرب "المر"

يا بلادي يا بلادي يا ضيا البلدان  
كل حب في فؤداي موقد النيران  
وما سجله الشيخ يوسف المنيلوي على شركة قرامفون  
وطني أنا بالروح أفديه حب الوطن ده من الايمان  
تعيش مصر حره

تعيش مستقلة يحي الملك يعيش سعد باشا يحي الوطن  
البرلمان للمجد سبيل ما يسلكه غير كل مسلم

شرب الوفاء من ماء النيل

وتغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب "بأحب عيشة الحرية ولكنه افتتحها بموسيقى السنفونية  
الخامسة للموسيقار الألماني "بيتهوفن باعتبارها ترمز للحرية؟".

وفي هذه الفترة ردد شبابنا نشيدا للامام الشافعي :

أمطرى لؤلؤا أجيال سرندييا وفيضي آبار تكرور تبرا  
أنا ان عشت لست أعدم قوتا واذا مت لست أعدم قبرا  
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

ومع بزوغ الصحوه العربية وانبعثت الحركات التحريرية بدأت نهضة غذائية طيبة في انتاج  
الانتاج الاغاني والأناشيد التي تتادي بالحرية سواء بالعربية الفصحى أو باللهجات المحلية وقد  
تعثر الملحنون في الخطوات الاولى اذ ظهر في العديد من قطعهم شيء من ميوعة التلحين  
جعلنا نكاد لا نفرق بين تلحينها وتلحين الأغاني الغزالية من حيث ادخال جو الحماس على  
ألحانهم انزلقو في تقليد الغرب في جعل كل أغانيهم على ايقاع الخطوة وفي مقامي الكبير  
(ماجور والصغير (ينور) اللذين اختصت بهما الموسيقى الغربية والحال أن لموسيقانا العربية عدد  
كبير من المقامات والايقاعات تصلح جميعها لبعث الحماس وغرس التطلع الى الحرية وحب  
الموت في سبيلها .

وتسربت هذه العاهة الى الأناشيد المرسية وصار بعض المشرفين على التربية الموسيقية  
يعتقدون أنه لا يجوز ولا يمكن تلحين الأناشيد وأغاني الشباب الا على المقامين المذكورين  
وعلى ايقاع الخطوة وكدنا بهذا المركب الذي أصاب أوساطنا الفنية والتربوية نفقد شخصيتنا  
العربية وندمج جيلنا الصاعد في ثقافة غير ثقافته فنجعل منه عنصرا متذكرا لهويته قاطعا الصلة  
مع تاريخه و مع تراث أجداده .

وقد توخينا لمجابهة هذا الخطر حملة قومية لجمع التراث الموسيقية العربي في أغلب الأقطار  
العربية فهذا أستاذنا المرحوم الشيخ علي الدرويش الحلبي يجمع العديد من الموشحات العربية

وقد قام ابنه المرحوم نديم الدرويش مع المرحوم الدكتور فؤاد رجائي بنشر جانب منها في كتاب فخم عنوانه من "كنوزنا" .

كما قام المرحوم الأستاذ مجدى العقيلي بنشر جانب من التراث في كتابه " السماع عند العرب". وقامت اللجنة العليا للموسيقى العربية بهذا الجمع ونشرت جانبا منه في أربع مجلّات براعاية رئيسها أختينا الأستاذ أحمد شفيق أبوعوف، وسجلت الجزائر مجموعة اسطوانات للتراث العربي حصيلة للمهرجانات التي أقيمت لديها . كما سجلت جمعية الموسيقى الأندلسية برعاية رئيسها أختينا المرحوم الحاج ادريس بن جلون واعانة منظمة اليونسكو ثمان نوبات من الاحدى عشرة نوبة كما أنجز صديقنا الاستاذ شعوي ابراهيم مجموعة تسجيلات لنماذج من المقام العراقي مع بيان قواعدها في نطاق معهد الدراسات النغمية الذى كان لنا شرف المشاركة في تاسيسه وتقوم الادارة العامة لرعاية الشباب في المملكة العربية السعودية بجمع التراث الفني والأدبي الشعبي برعاية رئيسها سمو الأمير فيصل وأنشأت دول الخليج مركز التراث في الشعبي بها سنة 1982 وفي الجماهيرية تعاوننا على جمع التراث في الستينات وأصبحت لها موسيقها التقليدية المرموقة وفي تونس عنينا بهذا الجمع من الأربعينات ونشرنا تراثنا في تسعة مجلّات وأنتجت في هذا المجال مجموعة كتب منها أول كتاب مسموع أنجزه نادي الاسطوانة العربية بباريس في عشر اسطوانات على نفقة الحكومة الجزائرية مشكورة وعملنا على دراسة هذا التراث في معاهدنا الموسيقية وضمن التعليم الثانوي للحفاظ على هويتنا العربية اعتقدا منا بأن الشعب الذي لا يحافظ على هويته في لغته وآدابه وفنونه على اختلاف أنواعها لا يمكن له المحافظة على حريته بين الأمم .

وقد أعطت هذه الحملة نتائجها بفضل مجهودات الأحزاب السياسية ومنظمات الشباب ووسائل الاعلام وتطوع العديد من الشعراء والملحنين فطلع فجر جديد للتلحين الحماسي طبقت فيه المقامات والايقاعات العربية نذكر من ذلك تبني طلبة المغرب العربي بأروبا في الثلاثينات لنشيد السيد درويش من رواية "كليوباترا" (حيّوا روما ) فأصبح :

حيوا افريقيا      حيوا افريقيا يا عباد  
شمالها يبغى الاتحاد      أشبالها تأبى الاضطهاد

ولحنا بمناسبة تأسيس جامعة الدول العربية من تأليف أستاذنا المرحوم الطاهر القصار:

يا عرب يا عرب      يا كرام النسب

أنتم للغلب                      والحجى والأدب  
يا عرب  
أنتم للندى                      أنتم للفدى  
يومكم في العدا                      قد غدا خالدا  
يا عرب  
ان تعالى علم                      أو تسامت همم  
أو ترى كرم                      قبل هذى الشيم  
... للعرب

وأنتجنا مع نفس الشاعر نشيد العملة عند تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل في  
الاربعينات :

يا جنود الشغل يا أسد الحمى                      حرروا الخضرا وصونوا العلماء  
حرروها بالسواعد                      وارفعو سيف العمل  
واعضدوها بالتعاقد                      تبلغوا أسمى أمل  
ان في الكد وأيدى العاملين                      عدة الوحدة والنصر المبين  
أيها العمال جدوا                      كل جمع في سبيل  
وانهضوا كي ما تصدوا                      هجمة البؤس الوبيل ....  
شغلو النشاء ومدوا باليمين                      لأراضيكم وردوا الغاضبين

وانتجت مع الشاعر أحمد خير الدين نشيد المغرب العربي في عنوان كفاحنا التحرير في  
الخمسينات :

أنتم رمز العلا                      يا شباب المغرب  
انشدو بين الملا                      باللسان العربي  
أنننا فخر الشباب                      لا نبالي بالصعاب  
لا ولا نخشى العذاب                      هكذا الحر الأبى

كما انتجنا في الأربعينات مع الشاعر سعيد ابي بكر نشيدا رافقنا في الكفاح التحريرى  
هيا للميدان يا جيل الشباب

نسعى لتحرير هذا الوطن  
نمشي للعليا في نهج الصواب  
في ظلام الليل او في العفن

ومن الأناشيد التي طبقنا فيها مقاما عربيا (الكردي وايقاعا عربيا (الاقصاص ) ما نظمه  
المرحوم أبو القاسم الشابي بعنوان "الصباح الجديد الذي يعتبر من التحرر :

أسكني يا جراح	وأسكتي يا شجون
مات عهد النواح	وزمان الجنون
وأطل الصباح	من وزاء القرون
في فجاج الردى	قد جفنت الألم
ونثرت الدموع	لرياح العدم
واتخذت الحياة	معزفا للنغم
أنغنى عليه	في رحاب الزمن

وإذا أشكر لمجلسنا القومي للثقافة العربية اختيار موضوع الابداع العربي وقضية الحرية  
أقترح اجراء مباريات سنوية في هذا المنهج لكل من القصة والمسرح والشعر والفنون التشكيلية  
والسينما والأغنية والمعزوفة حتى نرسخ معنى الحرية في حيا شعبنا العربي ونضمن استمرار  
تعلقه بها والدفاع عنها والتضحية من أجلها بالنفس والنفيس ويصبح من أجل روادها  
كما كان في عهدنا الأولى .

والله الموفق والسلام

د.صالح المهدي

رئيس المنظمة الدولية للفنون والتقاليد الشعبية